

البعد الديني في فلسفة الأخلاق عند بسكال "قراءة في كتاب الأفكار"

نجاة بلحمام

جامعة وهران

مدخل:

يعد "بسكال" من الأوائل الذين أثاروا مشكلة الإنسان في مشكلات وجوده ومصيره، فقد أشار كتابة الخواطر إلى جملة من المشاعر الوجودية التي كان يحسها، وهي ذات المشاعر التي أحس بها الوجوديون المعاصرون بعده كمسألة بطلان المصير الإنساني التي عبر عنها بسكال بالقياس إلى الطبيعة، بعبارة عدم تناسب الإنسان Disproportion ومعناه أنه إذا كان التناسب يظهر في الطبيعة بسبب حتمية العلاقات الطبيعية، فإن الإنسان لا يخضع له علاقاته، ومن ثم يوصف بعدم التناسب، الذي نتج عن هذه الضالة التي يعاني منها، وكذلك بعبارة التبرم (السخط) La Nausée التي كانت تقابلها كلمة الملل L'Ennui وذلك بالمعنى الوارد في القرن السابع عشر في فكرة ضرورة الاختيار obligation de choix التي كان يقابلها في مصطلح القرن السابع عشر ضرورة الاشتراك obligation de participation، وعليه يظهر في المذهب الفلسفي لبسكال بذور الوجودية المؤمنة المعاصرة وذلك عندما يتساءل بسكال عن كيفية وصول الإنسان إلى الله عندما يفكر في حاله ويتأمل في وجوده الفعلي.

إن كتابات بسكال الفلسفية تكشف عن إحساس الخوف والحيرة والتشاؤم والقلق، وهذه المشاعر تعبر عن الفكرة الوجودية الذي صاحب رؤيته الفلسفية فجعل طابعها التشاؤم والخوف والشقاء، ودفع به إلى دعوة الإنسان إلى تخطي وجوده المحدودة، والبحث عن اللامتناهي الذي يتمناه ويأمل فيه. ففي بداية الخواطر، تظهر صفحات متشائمة تتطوي على نداء البطولة، نداء إلى الله الذي يشقى الإنسان ويتعذب، ويتألم في البعد عنه، ولا يتخلص من عذابه إلى بالعودة إليه، أين يتحرر من خوفه وقلقه. وللوقوف على واقع الإنسان الأخلاقي، لا بد من الرجوع إلى مسألة وجود الإنسان عند بسكال وكيف تبلورت رؤيته التحليلية لواقعة المعذب ومعاناته وسبيل الخروج من هذا المأزق الوجودي عن طريق العودة إلى الدين.

الإنسان عند بسكال:

يعد موضوع وجود الإنسان من الموضوعات الهامة في فلسفة بسكال هذا ما يظهر واضحا في "الخواطر" التي أشار فيها لحياة الإنسان ووجوده وفكرة وآلامه وآماله وطريق الخلاص.

وموضوع الإنسان عند بسكال يختلف في دراسته عند "ديكارت"، فبسكال تجاوز نطاق الميتافيزيقا العالية التي اهتمت بمعرفة طبيعة الذات الإنسانية وماهيتها، إذ ليس مهما عند باسكال أن نسأل عن طبيعة ذات الإنسان وعن ماهيتها، بل المهم أن نحس حالته ونبحث في وجوده المعاش (يظهر هنا جذور

النزعة الوجودية عند بسكال التي أغفلت طبيعة ذات الإنسان وماهيتها كما جاء عند الفلاسفة الماهويين، وجهت إهتمامها إلى حالة الوجود المعاشة، فدرست الإنسان كحالة أو وجود مشخص على عكس دراسته عند ديكارت).

وعليه يتجاوز بسكال البحث في ماهية النفس L'Essence de l'Âme كما وردت عند ديكارت، ويبحث في مسألة وجودها، فالإنسان في نظر بسكال يحيا في نزعة دائمة ورغبة مستمرة تصبح عمياء Aveugle إذا لم يعرف أن الإنسان هو مصدرها الأول وأن الله هو الغاية من وراءها، ومن ثم يصبح الإنسان في نظر بسكال كائن ينشد السعادة التي لا يجدي البحث عنها، فهي مفتقدة بمعناها الكامل في الوجود، فإن الصحة تحتل الاعتلال، والجاه والمال معرضان للزوال، والأصدقاء على طريق الفراق.

بهذا ينبغي على الإنسان أن يسعى للفوز بحياة أخرى سعيدة بعد الموت وهذا ما يفهم من محاولة سعيه واندفاعه ورغباته المتصلة. وعليه على الفلسفة محاولة البحث عن إجابتين السؤال الأهم الرئيسي وهو كيف يمكن أن نحقق غايتها وكيف نبليغ الحياة الأبدية؟

إن سؤال بسكال هذا لا يقلل من شأن الفلسفة، هذه الأخيرة في منهجها العام هي البحث في الوجود الإنساني وفي الغاية منه وفي الوجود الإلهي والصفات الإلهية، وهي في تصوره لم تتجاوز البحث عن الغاية من الحياة، و للسعي إلى السعادة الكلية، وذلك السعي الذي يقوم به الإنسان بكامل نزعاته الجسمانية ودوافعه الروحية، ورغباته الفكرية وبكامل إرادته، بشعوره وقلبه، بعقله ومعرفته، وبفلسفته (Pascal, B. 1943: 150).

وموضوع الإنسان كان مدار تفكير الكثير من الفلاسفة والعلماء في القرن السابع عشر ومن بينهم ديكارت - مؤسس الفلسفة الحديثة - الذي اهتم بدراسة الإنسان باعتباره روحا، منتقلا في دراسته من وجود الله الذي يجد فيه حلول مشكلاته الفلسفية. غير أن دراسته للإنسان كانت دراسة تفصله عن شرائط الوجود، وقد جعل ديكارت الألوهية في قمة نسقه الاستنباطي، لجأ إليها في حل جميع المسائل الميتافيزيقية، غير أن بسكال كان أكثر تركيزا على الجانب الإنساني منه، ويؤكد هذا القول ما أشار إليه ديكارت في نص له من "المقال في المنهج" بقوله "إنني لا أشتغل بالميتافيزيقا إلا ساعات معدودة أثناء حياتي، وأشتغل بالعلوم الرياضية ساعات قليلة يوميا، غير أنني أشتغل طوال الوقت بالمسائل العملية والتطبيقية". ويقول أيضا: "إننا لا نريد فلسفة نظرية بل فلسفة عملية تجعلنا سادة على الطبيعة ومسخرين لها". (عبد المنعم، ع. 2000: 221).

وقد أدرك بسكال هذا الموقف الديكارتية من الإنساني، ويقول في مواجهته: "إن ديكارت قد رجع إلى الله لكي يسمح له بتحريك العالم، ثم بعد ذلك ترك المسائل المتعلقة به". (عبد المنعم، ع. 2000: 221).

وعليه فمفهوم الله عند ديكارت يختلف عن مفهوم الله عند بسكال الذي اعتبره ملجأ للإنسان خلاصاً من عذابه وآلامه.

هذا الإنسان في نظر بسكال يتحرك حركتين متضادتين: أحدهما أرضية تتجه نحو الأسفل، أي في اتجاه الحياة الحيوانية، وهي مصدر شقاؤه، أما الثانية فهي تتجه به إلى الأعلى أي مستوى متسام، نحو الله.

وتصوير بسكال حركتي الإنسان المتجه إلى الأسفل المتجه إلى الأعلى الغرض منه إقناع الملحد بالعودة إلى الله.

وعليه فموضوع الإنسان عنده بسكال هو موضوع الفلسفة عنده، من خلال صلته بالعالم، شعوره بالعذاب والقلق والإحباط حينما يتجه بشهواته وحينما يسمو بروحه فيشعر بالسعادة الرضا.

والحديث عن حركتي الإنسان (الأرضية أو السفلى وللعلوية) عن بسكال الغرض منه أيضاً إعادة التوازن إلى هاتين الحركتين المتضادتين في الإنسان، وهو يعرض لتناقضات الإنسان في نقاط ثلاث هي:

العقل في مواجهة الكون اللامتناهي.

تصور العقل.

ضعف الإنسان.

يصور بسكال ضالة الإنسان في مؤلفه الرئيسي "الخواطر" فيشبهه بعود Un Rousseau أو قسبة مفكرة، يقول عنه: "الإنسان ما هو إلا عود وأضعف عود في الطبيعة غير أنه عود مفكر، وليس من الضروري أن يجمع الكون كله لسحقه فقد تكفي لقتله نقطة بخار، أو قطرة ماء، وحتى إذا سحقه العالم فهو مع ذلك أنبل منه، لأنه يعرف حتماً أنه سيموت كما يعرف ما يتميز به العالم عليه في حين أن العالم لا يدري عنه شيئاً، ومن ثم كان الفكر وحده هو مصدر بكرامة الإنسان ومقياس نهضة وليس المكان، أو الزمان (الفضاء الديمومة) اللذان لا نستطيع حيالهما شيء فلنبذل قصارى جهدنا في مداومة التفكير، فهذا هو المبدأ الأساسي للأخلاق". (Pascal, B. 1943: 194)

فعقل الإنسان عند بسكال يأخذ أهميته في النظر إلى الكون اللامتناهي، إن يذهب في إحدى خواطره إلى القول: "بأن الإنسان ينساق مع الاضطراب العام فيتناسى ذاته، ويحس عدم جدوى الحياة. وبرغم حقارة هذا الموقف إلا أنه يعد من أحكم المواقف إذا اعتبرناه حال الإنسان في حياته، لكننا لو تصورنا الإنسان مجرد عود، أو عود مفكر يحتويه العالم الطبيعي وبيتله كالنقطة تماماً، فيجب أن نتذكر أنه بفكره إنما يحتوي العالم كله". (Pascal, B. 1943: 195)

ورغم ضعف الإنسان فإن الفكر المنظم هو كرامته *degnité* التي يحصي بها أبعاد الكون، يقول بسكال: "يجب أن أبحث عن كرامتي أنا - العود المفكر - ليس في الفضاء، ولكن في تنظيم فكري فإني لن أستفيد شيئاً ولن أتميز بشيء آخر عندما أملك الأرض لأن الكون يحتويني ويستوعبني لنقطة لكني عن طريق الفكر أحتويه". (Pascal, B. 1943: 195)

فبساطة الإنسان بالنسبة للكون اللا متناهي تعد أعظم من هذه اللانهاية العظيمة لهذا الكون، من حيث أنه يمكنه إستيعابها وتمثلها عقليا وذلك في كل لحظة من لحظات التفكير المنظم.

ولكن شساعة الكون تجعل الخيال الإنساني عاجز عن تصوير الواقع الطبيعي للكون، ويرجع بسكال ذلك إلى قدرة الله التي خلقت الكون شاسعا بحيث يعجز الإنسان عن إدراكه، يقول: "بالعظمة الكون، وشاسعته ويا لعطاء الطبيعة، إن الأرض تبدو كالنقطة الصغيرة حول دائرة هذا العالم الواسع، ويا للعجب فهذه الدائرة تبدو صغيرة جدا بالقياس للفضاء المليء بالكواكب حول الأرض، ولو أننا تركنا لخيالنا العنان فسوف نمل رؤية الطبيعة الشاسعة، في حين أنها لا تمل عن عطائها الدائم". (Pascal, B. 1943: 69)

وعلى هذا النحو يشير الفيلسوف بسكال إلى موضوع عدم التناسب Disproportion de L'homme بين الإنسان والطبيعة يقول: "إننا نعلم فكرة عدم وجود التناسب من خلال معرفتنا بالطبيعة بحيث إنه لو كانت المعرفة الأخيرة خاطئة لما تصورنا وجود حقيقة في الإنسان ألبته في حين أنها لو صحت فسوف يجد الإنسان فيها موضوعا كبيرا للتحقير". (Pascal, B. 1943: 68)

وعليه يصور بسكال حال الإنسان النائم في الكون والضائع بين رغباته وبين ما يأمله من بقين في الله فيدعوه إلى البحث عن شيء في ذاته يجعله عاليا على الطبيعة، يقول بسكال: "ليتأمل الإنسان ذاته، وليفكر فيما يلاقه من حوادث، وليبحث عن حقيقته لكي يحس نفسه وكأنه ضائع في هذا العالم، وأنه كمن يحيا في السجن هو "الكون" الذي يتوه فيه، ومن ثم يجب عليه أن يتعلم كيف يقدر الأرضي، والمالك والمدن وكيف يقدر ذاته بحق حتى يبلغ الحقيقة ألا وهي حقيقة الإنسان في للامتناهي". (Pascal, B. 1943: 69)

ويستمر بسكال في تحليل موقفه الوجودي بعد أن يمنح الإنسان ما يجب أن يتصف به من كمال العقل والفهم، فيصوره - مع ما يملك من عقل وما تنطوي عليه ذاته من موهبة فهم وتحليلا، ودوافع شغف وإرادة للبحث عن المجهول - نقطة صغيرة، أو عود مفكر، فهو لا يمثل أكثر من شيء بسيط بالنظر إلى الكون الواسع اللامتناهي. (Pascal, B. 1943: 69)

بالنسبة لبسكال هناك صفتين في الإنسان: الأولى هي صفة القدرة والقوة التي يتصورها في ذاته، يدفعه إليها طموحه، وغروره فضلا عن ضالة الكائنات الحية أمام رؤيته التي لا تتعدى طموحاته وأوهامه، ثم تأتي صفة العجز: وهي صفة ملازمة له ومتضادة مع تصوره للقدرة والقوة في الوقت نفسه، إذ أن في ذات الإنسان قدرتين هما القوة والضعف ومن ثم صفتين هما العظمة والانحطاط، هذا ما تبرزه خواطر بسكال متحدثة عن موقف الإنسان أمام عالم الطبيعي وعالم المخلوقات الدقيقة وما ينتج عن ذلك من موقفي قوة وقدرة واهمتين وضعف وعجز حقيقيين.

فالإنسان إذا عند بسكال مخلوق موجود وسط عالم لا متناهي، ووضع الوسط هذا هو ما تسبب في حيرة ومأساة الإنسان حين أشعره بعجزه الدائم،

وكشف له عن ما تتطوي عليه ذاته من تناقض يقول بسكال: "يعرف الإنسان من الكون كل شيء، الشقاء، والعظمة، كما يعرف فساد وصلاحه". (Pascal, B. 1943: 173)

هنا يظهر الموقف الوجودي عند بسكال في دراسة النفس وتحديد أبعاد شخصية الإنسان المشخص بالفرد هو مقياس وجوده، ومقياس سعادته وشقائه اللذان لا يملك حيالهما تغييراً أو تعديلاً.

وعليه فالنفس هي مقر المتناقضات، إذ يبدو الإنسان مرة عظيماً متعالياً ومرة ضائعاً ومعذباً حين تخونه قوته وتجعله عاجزاً عن الإدراك الكامل لما يحيط به من كائنات، في نطاق ديمومة الزمان واتساع المكان.

وفكرة الوسط كما يتصورها بسكال تكشف عن اتجاه واقعي في دراسة الوجود الإنساني.

وموقف بسكال هذا من الإنسان وحقيقة وجوده هو ما ينتهي إليه فلاسفة الوجودية المعاصرين.

ودراسة بسكال للإنسان تقوم متأثرة بفكر القديس أوغسطين الذي قال بالتضاد الموجود بين طبيعة الإنسان كما خلقه الله وبين حالة السقوط Chutte الناتجة عن الخطيئة الأصلية، لذلك فإنه يعرض لخالقه على شكل Diquie، أي من زوايتين أولهما انحطاطه، وثانيهما عظمته.

كما ينكر بسكال تأثير فكر "مونتني" Montaigne على مذهبه في الإنسان يقول: "إن تصوري للإنسان لا يجد له شبهاً مع ما ورد عند "مونتني" إنما ينبع أصلاً من ذاتي، وليس من غيرها فليس في "مونتني" ... وإنما في ذاتي أجد كل ما أراه". (Pascal, B. 1943: 131)

ففكرة بسكال حول الإنسان هي خلاصة فكر شخصي، نابع من معاشته للوجود، وتجربته الواقعية، وليس بتأثير فكر "مونتني" الذي تشيع في فكرة صورة الشك، و تسيطر عليه نزعة الحس والمادة، بل يذهب أكثر من ذلك إلى القول بعجز العقل الطبيعي عن تمييز الملامح الإلهية في الأشياء.

ارتباط فلسفة الأخلاق بفلسفة الإنسان عند بسكال:

إن وقوف بسكال على حالة الإنسان فتح له المجال للاهتمام بفلسفة الأخلاق التي يرجع الفلسفة بأكملها إليها على الرغم من كونه قد اهتم في البداية بدراسة العلم الرياضي والطبيعي.

وهو في مجال الأخلاق يحل المشكلة الإنسانية بتصور جمعها بين نقيضين أحدهما اليقين والآخر الشك.

ويمثل بسكال اليقين في الجانب الفكري "لأبيكتاتوس" الفيلسوف الرواقي، المؤمن بالله والعناية الإلهية، إذ وجه الناس إلى تجنب الانفعالات، والاعتماد على الذات والرجوع إلى العقل، وحتمية الطبيعة في إصدار الأحكام، وقد كانت نظرته الأخلاقية عن السعادة تهدف إلى دفع الإنسان للعيش وفق الطبيعة "عش وفق الطبيعة".

وهذا الاتجاه الفكري يتفق مع فكر بسكال الذي يدعوا الإنسان إلى مسامرة الواقع الحيوي الذي يمثل أساس حياة الإنسان وأصل التوافق مع الدين فهو بذلك يجمع بين الرواقية الوثنية وبين الدين المسيحي، بتوجيهه النظر إلى الخضوع للدين المسيحي، والطبيعة التي تخضع له وتأنمر بأوامره حتى يبلغ الإنسان الفضيلة والكمان كما يهدف الرواقين من مذهبهم، لكن بسكال ينتقد الموقف للفلسفي للرواقية والذي يظهر في التجربة وشرائط العمل" إذ أن الرواقي يشعر بالكبرياء Orgueil vanité لثقته وغروره المفرطين إلى مستوى يعجز فيه عن مقاومة أي صدمة، فيصيبه اليأس الذي يدفع به إلى الانتحار.

وعليه فالفلسفة الرواقية بنظر بسكال أخفقت في فهم حقيقة الحياة.

• أما الفلسفة الثانية (فلسفة مونتني) التي قوامها الشك، فهي ترى أن الإنسان عاجز عن إدراك الحقيقة وعن تقريرها، وتكشف للإنسان أن لكل حكم يصدره حكما مناقضا يكون للأول أدلته، وللثاني قرائنه، وعليه فلا مجال فيها لأي تقرير أو إنكار حاسم. (وهذه القاعدة في الحكم تنافي ما جاء في قواعد "ديكارت" بعدم التردد في إصدار الأحكام، فإن التردد من عوامل إثارة الشك في الفكر، ولكن لا بد من عقد العزم. وقد أشار "ديكارت" أيضا لهذه الفكرة في "الأخلاق" فهو يقول: بأنه لا ينبغي على الإنسان أن يتردد في حياته بل يعقد العزم ويتوكل دائما على الله.)

وبالتالي ما يكون على الإنسان إلا أن يسأل هل أعرف شيئا؟

إن هاتين الفلسفتين تهملان إحداهما عظمة الإنسان وثانيهما شقاءه، وهذا ما عبر عنه بسكال في حديثه مع "دي ساسي" يقول: في مشكلة الإنسان والأخلاق: - "يبدو لي أن المذهبين قد أغفلا الفارق بين حالي الطبيعة الإنسانية: حالتها العادية، وعند الخلق فقد لاحظ أحدهما شيئا عن عظمة الإنسان الأولى وجهل فساد، فذهب إلى أن طبيعة طيبة، وفي غير حاجة إلى مخلص، وقد أدى به ذلك إلى حالة من الكبرياء. في حين عرف الأخير شقاءه الحالي وجهل حالته الأولى، فتصور أن طبيعته محتّم عليها الاعتلال والفساد ما دفعه إلى التراخي واليأس في إدراك أي خير حقيقي وإذا كان من الضروري معرفة الحالتين مجتمعتين فإن معرفتهما منفصلتين توقع الإنسان بالضرورة في إحدى الرذيلتين: الكبرياء، والكسل La paresse اللذين لازماه قبل النعمة، وإذا كان حالة إما قائم في الفساد عن كسل أو خارج عنه عن غرور". (Pascal, B. 1931: 403-404)

ويبحث بسكال في مشكلة الأخلاق على هذه الصورة، ينتهي حتما إلى مشكلة أصيلة متمثلة في صورة التفلسف الحقيقي، وهذا ما دفع "دي ساسي" إلى سؤاله عن الحل، والفائدة من الفلسفة ما دامت أنها تؤدي إلى هذه النتائج، وهل من الضروري أن يتلقى المؤمنون مثل هذه الفلسفات ولديهم الكتاب المقدس، وكتب آباء الكنيسة". (Pascal, B. 1931: 403-404)

فالفلسفة بنظر بسكال تقع في خطأ كبير عندما تتجاهل شقاء الإنسان وعظمته كما أنكرتها فلسفتي الرواقيين ومونتني.

لا تقوم الفلسفة الحقيقية بنظر بسكال إلا إذا ثم النظر إلى الإنسان في شروط وتاريخ وجوده الواقعي، كما أنه لا يتحقق التفلسف الصحيح إلا إذا قررنا مسائل لا تخضع للنظر أو الاستدلال، بل تكون موضع تسليم إيماني فحسب، ويرى بسكال أنه لا بد من النظر إلى حالة الإنسان الواقعية قبل حدوث الخطيئة Péch  Originale، وهي المرحلة التي كان فيها عظيما قريبا من الله، ثم مرحلة ما بعد الخطيئة وكيف تحول إلى الشقاء، يقول بسكال: "إذا كان الأمر كذلك فمن الممكن إقامة مذهب أخلاقي كامل يوم على أساس الجمع بينهما ما دام أحد الموقفين حقا، والآخر باطلا وإلا أن هذا الجمع لن يؤدي إلى أي وثام بل سيؤدي إلى حرب، وخراب شاملين، ذلك أنه لما كان الموقف الأول يقرر اليقين، والعظمة. وكان الأخير يقرر الفشل، والضعف فإن كلا من الموقفين يهدم حقيقة الآخر وباطلة معا". (Pascal, B. 1943: 202)

إذا الحالة الإنسانية تستلزم اجتماع النقيضين، فليس الإنسان شقيا دائما ولا عظيما دائما بنفس الدرجة، إذ أنه عاش بالقرب من الله لفترة، ثم ابتعد عنه بسبب اقترابه الخطيئة الأزلية، فعاش الشقاء، والخروج من دائرة الشقاء لا يكون إلا بالعودة إلى الإيمان.

إذا بنظر بسكال تجاوز التناقضات التي تنطوي عليها الإنسانية لا يكون إلا من خلال الدين، يقول: "ورغم ذلك فلن يستقيم أي طرف منهما بمفرده- مذهب الشك واليقين- لما يحتويه من تناقض، كما أنهما لن يتحدا لوجود تعارض بينهما، وعندئذ سيؤول مصيرهما إلى التلاشي، والتمزق أمام حقيقة الإنجيل التي توفق بين الأضداد بفض إلهي عظيم Un art tout divine على الأباطيل في لحظة وجودها. وهكذا تبدو حقيقة الدين وهي تجمع بين الحدود المتنافرة في المذاهب الإنسانية، التي جمع فيها حكماء العالم هذه الأضداد في موضوع واحد بحيث نسب البعض إلى الطبيعة صفة العظمة، في حين وصفها البعض الآخر بالضعف فجعل منها حكمة سماوية بالمعنى التام.

إن هذا التناقض يبدو مستحيلا لأن الإيمان يعلمنا أن نضع الضدين في موضوعين متباينين فيرجع ما كان عاجزا إلى الطبيعة في حين ترجع القوة إلى النعمة Grace. وهذا هو الاتحاد العجيب الجديد بين الطبيعة، والنعمة الذي لا يقدر غير الله على تعليمه للناس، وعلى تحقيقه أيضا. كما أن الدين ليس إلا ضرورة، واثرا للاتحاد أعجب منه بين الطبيعيتين الإلهية الإنسانية في شخص المسيح (Pascal, B. 1931: 404) (Homme-Dieu)

فالدين إذا يأتي في مقدمة الفلسفة والأخلاق عند بسكال، والإيمان يكسوا بعدا رئيسا في تخلص الإنسان من المتناقضات التي يتصور معها لضعفه، فالعالم ما هو إلا مزيج متناقض من الوضوح و الغموض، وحسب تصور بسكال نحن نعيش في حالة نصف مظلمة demi obscur، يقول بسكال في رسالة إلى "رواينز": "ما هي تلك المجازات التي يخاطبنا الله بها إن لم تكن جميعا حضور في غياب، فالنبوءات تتحقق لكنها تتحقق بغير كمال على الإطلاق كما كنا نتوقع(Pascal, B. 1931: 445-446)، إنه بهذا يشير إلى ألوهية محتجبة محاولا

الإهتداء إلى الله الذي يساعدنا على الخروج من المتناقضات، ويعبد لنا طريق الهداية الذي نصل من خلاله إلى المعرفة الحقيقية بالدين والحياة، يقول: "إن عظم الإنسان وانحطاطه إنما تتكشف لدينا عن طريق النور العقلي والفلاسفة يدهشون عامة الناس في حين أن المسيحيين يدهشون الفلاسفة عندما ما يرون أن الدين ليس إلا معرفة الأمور التي إذا تعقلناها آمنا بها". (Pascal, B. 1931: 444)

البعد الميتافيزيقي والأخلاق عند بسكال:

إن الأخلاق عند بسكال تنطلق من حكمة واقعية عملية، مفادها أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، فالإنسان يعيش في حالة تضاد مع نفسه التي تحمل القوة والضعف السخط والرضى، السعادة والتعاسة وللشعور بالقرب من الله والبعد عنه، هذه المتناقضات جميعها تحملها الذات الإنسانية.

فقد امتلك بسكال ميتافيزيقا أساسها تجربة الإنسان واقعة، وهو يقول معبرا عن حقيقة الإنسان: "إن من طبيعة الإنسان ألا يمضي قدما فحسب، بل له روحاته، وغدواته فالحمى مثلا تصاحبها رعشات، ولفحات، والشعور بالبرودة فيها يكون مؤشرا على ارتفاع درجة الإصابة بها مثله مثل الشعور بالحرارة تماما، وكذلك يكون الأمر بالنسبة لاختراعات الناس من قرن إلى قرن فإنها ترتبط فيما بينهما. بمثل هذا الأسلوب، وكذلك فأن الطيبة، والخبث الموجودان في هذا العالم يخضعان بصفة عامة لمثل هذا المبدأ".

(Pascal, B. 1943: 196)

وعليه فالعالم لا يسير في اتجاه واحد، والسلوك الإنساني يقوم على أفعال متضادة، فالشيء الوحيد قد يتطلب أمرين متضادين الحرارة والبرودة مثلا، كما أن السلوك الاجتماعي يقتضي الخير والشر معا، فليس يسود الخير كما يتفاهل ديكارت، ولكن للشر أيضا فاعلية في السلوك البشري كما يؤسس - من منظور واقعي - له بسكال، فقد كان القديس "أوغسطين" و "سانت أنسلم" و "ديكارت" ينظرون إلى الشر على أساس أنه أمر عارض، وأن الخير هو الجوهر وأن الشر ظن، وسلب اليقين، وعمل المخيلة الكاذبة فقط.

لكن بسكال ينظر إلى الواقع الأخلاقي في نظرة علمية يرى فيها أن كل من الخير والشر واقعة تقابلها في السلوك الحيوي وأن لكل منهما فاعلية في واقع الحياة.

لكن هل الله هو أصل الشر كما أن أصل الخير أم أن الشر يأتي من أنفسنا التي تكون معارفها ناقصة؟

إن الاعتقاد الأكبر أن بسكال يذهب إلى المعنى القرآني "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض". (سورة البقرة/ 251)

إذ تصور أن الخير والشر موجودات في واقع الإنسان، ولا يمكن إدراك الخير إلا بالعودة إلى الدين، والرجوع إلى الله يكون رجوع ثوبة لا عودة بعدها إلى اللهو والعبث.

هناك خاطرة كتبها بسكال تحت عنوان "الضعف Faiblesse والتي يبين فيها الضعف الذي آل إليه الفيلسوف قبل مرحلة التدين الحقيقي الذي مارسه في

دير بور رويال، هذه الخاطرة تشير إلى أن الإنسان يسعى بشكل مستمر للبحث عن الخير، لكنه ما أن يصل إليه حتى يجده خيالا، إذ أنه يفتقد القدرة الحقيقية على امتلاكه، يقول بسكال: "نتجه اهتمامات الناس إلى الاستحواذ على كل ما هو خير، ولكنهم يعجزون عن تفسير سبب امتلاكهم له بحق أو بعدل حينما يحصلون عليه ذلك أن كل ما حصلوا عليه هو سراب (خيال) Fantaisie des hommes ينسجه الإنسان الذي لا يملك في ذاته قوة حقيقية على امتلاك الخير، والأمر كذلك بالنسبة للعلم الذي ينتزعه المرض، ومن ثم فإننا عاجزون عن الوصول إلى الحق والخير." (Pascal, B. 1943: 431)

حقيقة البعد الديني في فلسفة الأخلاق عند بسكال:

إن حياة بسكال تكشف عن حالة يأس من الحياة والحصول على الخير وإدراك الحقيقة، هذه الإحساسات ارتبطت عند بسكال بحياة اللهو التي كان يعيشها عملا بنصائح الأطباء بأن يفسح مجالا لنفسه، فكان لهذه التجربة نتيجة تمثلت في الرؤية اليائسة والتي دفعته إلى التسليم بأن المرض يفقد الإنسان علمه، هذه الحالة تبعها اكتشاف اليقين الديني والقول بوجود الحقيقة، التي يمكن الوصول إليها لو أنا أحسنا تجاهها بإحساس المحبة، إنها حقيقة الدين أو حقيقة الخير، يقول بسكال في تعبير عن حبه للحقيقة وإمكانية التوصل إليها: "إننا لن نتمكن من تجنب تفشي الكذب، وغموض الحقيقة إلا إذا اتجهنا إلى الحقيقة وأحببناها بصدق." (Pascal, B. 1943: 431)

وقد بيدوا التناقض في موقف الفيلسوف بسكال، فهو أولا أقر باليأس وباستحالة إدراك الحقيقة، ثم ثانيا دعوة إلى الأمل في بلوغ الحقيقة، وقد يرجع ذلك. - أي التناقض في الموقف - إلى طبيعة الحياة التي عاشها بسكال والتي اتسمت بالضجر واليأس وغياب الإيمان بأية قيمة، ثم الرجوع إلى الإيمان، وبالضبط إلى الدين وإلى القيم الخير والحق وذلك عندما اشتد عليه المرض. والتناقض الذي عاشه بسكال يكشف عن إنسان وليد ظروف نفسية واجتماعية عايشها تأثر بها وأثر بها، إنه صورة عن الإنسان بكل يأسه وضعفه.

وبالتالي فالحقيقة كيف ما كانت ومن بينها الحقيقة الأخلاقية لا تربط في معناها بالميتافيزيقا، وإنما بالواقع الحيوي للإنسان، ولما كان التناقض هو أساس الواقع الحيوي، تعين على الإنسان الحكيم الذي يطلب السعادة أن يعرف القليل من كل شيء. (لقد عاش بسكال محبا للمعرفة شغوقا بها، وقد شارك علماء عصره تجاربهم وأبحاثهم العلمية، والرياضية على الرغم من حداثة سنه، وكان المبدأ الذي تمسك به في هذا المجال هو "قليل من الكل" peu de tout بعض المعرفة من كل المعارف لأنه لا يمكن أن يكون عالما وموسوعيا في معارفه، وذلك لمعجزه عن تحصيل معرفة كاملة عن شيء معين، ومن ثم ينبغي عليه أن يعرف قليلا من كل شيء عن معرفة الكاملة بأمر واحد وجهله ببقية الموضوعات، يقول: بسكال: "ينبغي أن نختار معرفة القليل من كل شيء عن الجهل، أو معرفة كل

شيء عن أمر واحد ، فإذا تمكنا من الجمع بين الميزتين فسوف يكون ذلك أفضل"
Pensées, Pen N37. P 59.

ومن تحليل هذه الخاطرة يتبين لنا مبدأ الثقافة العامة للإنسان ، الذي يجب عليه أن يلم بمعارف كثيرة من مجالات المعرفة المختلفة وهو يهدف بذلك إلى مبدأ العلم بالشيء خير من الجهل به ، وهي حكمة يونانية قديمة في مجال المعرفة). لكن معرفة القليل من كل شيء قد لا يمكننا من استيعابها ودراستها دراسة كاملة ، كما أنه معرفة الشيء القليل قد يجعلنا عاجزين عن امتلاك اليقين المعرفي فتكون الحقيقة بذلك ناقصة.

لكن بسكال يحل هذه المشكلة بالرجوع إلى الإيمان ، إنه الإيمان بالله الذي يعد الحجر الأساس في نظريته في الأخلاق أو الوجود ، إذ يرتبط الإيمان بالله بالحكمة ، هذه الحكمة العملية تؤدي إلى السعادة ، فالسعادة بنظر بسكال لا تكتمل في هذا العالم المليئ بالمتناقضات إلا إذا ارتبطت بالإيمان.

والخواطر أو الأفكار Les Pensées ، أو بالأحرى الدفاع عن الدين التي تعتبر من أهم مؤلفات بسكال الفلسفية ، الدينية ، تعبر بصدق عن روح الدفاع عن العقيدة المسيحية خاصة الجانسينية Janséniste ضد الجزيث Jesuits ، وقد تصور بسكال الاتجاه الأول على أنه المذهب الوحيد المنفرد باعتناق العقيدة الكاثوليكية والدفاع عنها ، وقد كان اتجاه بسكال في "الخواطر" أساسه الدفاع عن العقيدة المسيحية Une Défense fondamentale بغرض الرجوع إلى المبادئ الأولى للدين Premières Principes de la religion.

إذا فالبعد الديني في فلسفة الأخلاق عند بسكال إنما هو نتيجة تجربة حياته عايشها الفيلسوف ، قرر من خلالها أن عظمة الإنسان قائمة في الفكر وأن مبدأ البحث في الأخلاق متمثل في النفس وما يتعلق بها من فكر ، فالوصول إلى معرفة يقتضي معرفة الذات أولاً ، ولقد كانت لبسكال رؤيته الخاصة للإنسان ، الذي لم يجد ملجأ له للخروج به من مأزقه الوجودي والأخلاقي إلا بالرجوع إلى الدين ، وبالتالي يعد موقفه هذا إرهاباً لرومانسية القرن الثامن عشر ، عصر " الإنارة" L'Epoque du lumière الذي تميز بالثورة على الكلاسيكيات الديكارتية واللجوء إلى الخبرة الشخصية بالإضافة إلى ثمار العقل التي حصلها الإنسان في القرنين السادس والسابع عشر.

قائمة المصادر والمراجع:

Pascal, B. (1931). œuvres complète. Paris: librairie ollendorg.

Pascal, B. (1943). Les Pensées. Paris: Neslon Editeurs.

عبد المنعم ، عباس(2000). الأخلاق عند بسكال: دار المعرفة الجامعية.